

الوطن والوطنية في ميزان الشريعة الإسلامية
بحث
للشيخ عجيل جاسم النشمي

مقدم إلى

مؤتمر رابطة علماء الشريعة بدول مجلس التعاون
الخليجي

الذي يقام بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشئون
الاجتماعية

في الفترة من

١٦-١٧ محرم ١٤٣٢

٢٣-٢٤ ديسمبر ٢٠١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
أجمعين وبعد .

فإن مفهوم الوطن والوطنية قد وقع فيهما لغط كما وقع لبس وتداخل بين في
تحديد الحقوق والواجبات ، كما وقع فيهما لغط وخلط في معناهما بين الإفراط
والتفريط دون حد وسط واعتدال . فمنهم من جعل الوطن أرضه المقدس دون سواه ،
والوطنية عقيدة تربط بين أبناء الوطن ولا رابط بينهم سواها، فأنتج ذلك حبا أعمى
وتعصبا قوميا وعرقيا مقبها ، جعل هؤلاء ينظرون إلى الناس وكأنهم دون البشر
جنس أعلى وأنقى . وذلك أنهم اعتبروا في أدبياتهم وفكرهم " أن الوطن هو التفاعل
بين الشعب والأرض، وهما معاً مع ما ينتجانه من لغة وثقافة وعادات ووقائع في
إطار الصيرورة التاريخية، تشكّل مجتمعة الأمة. ولهذا فإن الوطنية هي سمة الانتماء
إلى الأرض، كما أن الشعور القومي هو سمة الانتماء إلى الأمة. " وليس للدين ههنا
نصيب . بل جعلوا من الوطنية حاكما على الدين " فالأرض والوطن يتشاركان في
تأسيس مرجعية جديدة تجبّ كلّ المرجعيات السابقة لها. فالانتماء إلى الأمة كما إلى
الوطن يصبح هو أساس التحديد في المستوى السياسي، في تعريف الشعب. وبالتالي
فهما يرتفعان فوق الانتماءات الدينية والمذهبية، لتحديد البشر بانتمائهم الوطني أو
القومي. ليصبح الانتماء الديني أو المذهبي شأناً شخصياً لا علاقة له بالسياسة .
وقالوا: إن هذا هو الأساس الصلب لتأسيس الدولة/الأمة، وتأسيس الديمقراطية، التي
سـتـتـكون هـنـا عـلـمـائـية بالـضـرـورة،
وهنا يسقط مفهوم الوحدة الوطنية بالمعنى الدارج، أي الوحدة بين أديان وطوائف
وإثنيات لسبب ما يتعلّق بخطر "خارجي" . لأن مفهوم الدين

والطائفة والإثنية يكون خارج موضوع السياسة، ويتحدّد في المعتقد
الشخصي، ولتصبح المواطنة هي مقياس العلاقة بين كلّ أفراد الشعب . "

وفي الجانب الآخر هناك صنف من الناس من لا يرى للوطن حرمة ولا
للوطنية احتراماً ، بل المصلحة المادية الشخصية مقدمة عليهما ، المهم أن يتضخم
رصيد الملايين ولتذهب الوطنية حيث تموت . وهذا صنف قد يهون أمره ولا يهون ،
ولكن هناك صنفاً أكثر خطورة منه أولئك أناس مسلمون هم من جلدتنا ويتكلمون
بلساننا يرون أن الولاء والبراء يتناقض وحب الوطن واحترام الوطنية ، وأن
المواجهة مع الحكام ومن والاهم هو الطريق لتحقيق الإيمان والحاكمية ، أي أن
الإرهاب هو السبيل . ومما زاد من تعقيد موضوع الوطن والوطنية ضياع الفواصل
وعدم وضوحها أعني الحقوق والواجبات ، وحق المواطن على الدولة وواجبه
تجاهها .

من أجل ذلك وهذا .. كان تحديد الوسطية في مفهوم الوطن والوطنية ضروريا ، بل بالغ الأهمية . ولن نعبأ في هذا البحث إلى مزيد تفصيل للخلافات في معاني الوطن والوطنية والقومية والاسترسال في ذلك ، ولكن همننا أن ندلف إلى الموضوع الأهم والمقصد المحدد وهو تحديد مفهوم وموقف الشرع من الوطن والوطنية ، وبيان الوسطية فيهما أو التوازن بينهما ، ومنه تحديد الحقوق والواجبات بين المواطن والدولة فهو الهدف المهم . والأهم من ذلك التأصيل الشرعي للمفهومين من الكتاب والسنة واستنباط دلالات المعاني منهما .

ووصولاً إلى تحقيق مقصد البحث فقد قسمته إلى محاور عدة مرتبة كالتالي :

تعريف الوطن

معنى الوطنية

الوطن والمواطن حقوق وواجبات

علاقة الوطنية بالإسلام

وطنية المسلم في البلاد غير الإسلامية

تأصيل معنى المواطنة والوطنية

دلالة الآيات الواردة في الوطن والوطنية

دلالة الأحاديث الواردة في الوطن والوطنية

حب الوطن وصلته بالإيمان

رفع الالتباس الشرعي عن بعض قضايا الوطنية

أولاً : تحية العلم

ثانياً : موسيقى الجيش والقيام عند السلام الوطني ثالثاً : من مات دفاعاً عن

وطنه هل يعد شهيداً

والله أسأل التوفيق والسداد .

الشيخ عجيل جاسم النشمي

تعريف الوطن :

يقال : أوطن الأرض ووطنها وتوطنها واستوطنها . والوطن محل إقامة الإنسان ولد به أولم يولد (١) .

فكل من استقر مقامه بأرض فهي وطنه لأنه ارتضاها أرضا وتوطنها بغض النظر عن دينه أو أصله أو جنسه أو لونه ، وهذا المعنى العام تخصص معناه العلاقات السياسية اليوم ، في ظل الظروف والقوانين والدساتير .

وهذا المعنى يقترب من معنى الوطن في الفكر السياسي الذي يرى أن الوطن هو الأمة، فالأرض التي عليها أمة من الناس مستقرين هي الوطن ماداموا متفاعلين مع هذه الأرض لغة وتاريخا وعادات فكل من انتمى لأرض بهذا الوصف فهي وطنه .

معنى الوطنية والمواطنة :

"الوطنية" : تشير إلى شعور الفرد بحبه لمجتمعه ووطنه، واعتزازه بالانتماء إليه، واستعداده للتضحية من أجله فالوطنية شعور قلبي ووجداني يُترجم في المحبة والولاء والميل والاتجاه الإيجابي والدافعية الذاتية للعمل للخلاق الذي يستهدف رفعة الوطن.

أما مفهوم "المواطنة" : فيشير إلى الجانب السلوكي الظاهر المتمثل في الممارسات الحية التي تعكس حقوق الفرد وواجباته تجاه مجتمعه ووطنه، والتزامه بمبادئ المجتمع وقيمه وقوانينه، والمشاركة الفعالة في الأنشطة والأعمال التي تستهدف رقي الوطن والمحافظة على مكتسباته.

وفي ضوء هذا التفريق بين مفهومي الوطنية والمواطنة، فإن المواطنين يتميزون فيما بينهم في وطنيتهم ومواطنتهم بحسب تربيتهم وثقافتهم وتأثير التعلم في سلوكهم. ويمكن وضعهم في فئات .

الفئة الأولى : المواطن الذي تقلّ لديه صفات الوطنية والمواطنة إلى حد وصفه بأنه سلبي في مواطنته وغير منتم في وطنيته، وهذا الصنف من الناس لا يقدم الخير لأمنه، ولا يشجع من يعمل الخير، ولا يلتزم بسلوك الجماعة السوي .

الفئة الثانية : المواطن الذي يرتفع لديه مستوى سلوك المواطنة، إلا أن انتماءه وحبه للوطن منخفض، فهو لا يظهر محبته لوطنه إلا أنه في الغالب يتقيد بأنظمة الوطن ويؤدي ما عليه من حقوق وواجبات تجاه وطنه إما رغبة أو رهبة.

الفئة الثالثة : المواطن الذي يرتفع لديه مستوى الوطنية إلا أن سلوك المواطنة عنده منخفض، فهو يشعر بانتمائه وحبه للوطن ويعتز بذلك، لكنه قد يقصّر

(١) أساس البلاغة ، اسم المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، الوفاة: ٥٣٨ هـ ، دار النشر : دار الفكر - ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ومقاييس اللغة لابن فارس ومختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي مادة وطن .

في أداء ما عليه من حقوق وواجبات تجاه وطنه، كما أنه لا يلتزم بالسلوك والقوانين التي يقرها ولي الأمر أو ترتضيها الجماعة.

الفئة الرابعة : المواطنون الذين يرتفع لديهم مستوى الوطنية (الانتماء للوطن) كما يرتفع عندهم أيضا مستوى المواطنة (السلوك الإيجابي في خدمة الوطن)، فالمواطن في هذه الفئة معتر بوطنه، منتم إليه، متمسك بالسلوك السوي للمواطنة، بحيث إنه يعرف واجباته وحقوقه، ويدخل في ذلك حقوقه في مدرسته أو جامعته، أودائره أو مؤسسته التي يعمل فيها، أو مصنعه الذي يشتغل فيه. كما يعرف الفرد من هذه الفئة حقوق غيره من فئات المجتمع ، وغير ذلك ممن لهم حقوق ينتظرون من الآخرين أداءها. وهذه الفئة من المواطنين هم الذين يمثلون النموذج الأفضل، وهو ما تسعى إلى تكوينه مناهج التربية الوطنية، وما تهدف إلى تنشئته الأمم والشعوب، وهو الورقة الرابحة في منظومة التنمية والتطوير التي تهدف إليها كل الأمم.

الفئة الخامسة : وهي فئة شاذة كلياً عن أوصاف الفئات السابقة. وهذه الفئة يوصف الأفراد فيها ليس بنقص الانتماء للوطن فحسب بل بما هو أكثر سلبية، وهو بغض وكره ذلك الوطن، كما أنهم لا يكتفون بعدم ممارسة السلوك الصحيح للمواطنة، بل يسلكون سبلا تخريبية تنفض سلوك المواطنة والسلوك المدني بعامته، ومثال تلك الفئة المفسدون في الأرض والإرهابيون الضالّ، فهم يبغضون الجماعة التي هي لحمة الوطن ويخرجون عليها وعلى ولاة الأمر، كما أنهم يسعون في الأرض فساداً، ويهدمون ما يعتر الوطن به من مكتسبات وإنجازات، فلم يبق لهم من وصف الوطنية والمواطنة شيء، وليس لهم إلا أن يوصفوا بالإرهابيين المفسدين في الأرض^(٢).

والذي يظهر أن المواطنة صنفان : الأول : هو الصنف الذي يؤدي فيه المواطن كامل التزامات الوطن والمواطنة طواعية وحبا قلبيا . والثاني : هو الصنف الذي يشعر فيه المواطن بمواطنته ووطنيته ولكنه سلبي في أداء التزاماته طوعا وبالشكل المطلوب مقابل حقوقه ، كما أنه سلبي في تفاعله مع قضاياها . وأما من عدا هذين الصنفين ممن لا يشعر بمواطنته ولا حبه لوطنه ، ومن يعادى دولته ووطنه ومواطنيه فهو خارج عن حدود الوطنية .

الوطن والمواطن حقوق وواجبات :

إن كل حق يقابله واجب ، وما لم يحم كل طرف بواجبه يتعذر أن يعطى حقه كاملاً ، والدولة صاحبة السيادة يربطها وشعبها عقد الولاء والسيادة ، وهو في الشريعة كما قال الماوردي : سياسة الناس في أمور دينهم ودنياهم ، فواجب الدولة رعاية مواطنيها ، ومن هو مقيم على أرضها ، والرعاية تعني توفير سبل العيش الكريم ، من وظيفة ومسكن ، وحياة كريمة ، وينظم هذه العلاقة دستور وقانون .

(٢) بتصرف من دراسة نشرت بالاشتراك للدكتور صالح بن عند العزيز والدكتور راشد العبد الكريم بعنوان: "التربية الوطنية في مدارس المملكة العربية السعودية: دراسة تحليلية مقارنة في ضوء التوجهات التربوية الحديثة" وقدمت للقاء السنوي الثالث عشر لقادة العمل التربوي في مدينة الباحة ١٤٢٨/٠٤/١٦ هـ .

ويقابل هذا الواجب على الدولة حقوق لها على مواطنيها ومن يقيم على أرضها ، وهو الالتزام باحترام النظم والقوانين ، والعمل الإيجابي في غرس مفاهيم الوطنية ، ونبذ العصبية أياً كان نوعها مما يعكر صفاء العلاقات ، ويورث الخلاف والفرقة ، وهما سبب من أهم أسباب تفكك المجتمعات ، ومن ثم الاضطرابات والانقسامات ، وهما أسرع طريق لانهايار الدول .

فإن لحمة المجتمعات وسداها تآلف أفرادها وتعاونهم في سبيل نهضة وطنهم وتوحيد انتمائهم وهويتهم في دولة واحدة وقانون ودستور واحد .

ومن هذا الجمع بين الواجبات ومقابلتها بالحقوق تنفرع العلاقات ، وتبنى الجسور النظامية والعاطفية بين المواطن والوطن ، أو بين الشعب والحكومة أو السلطة ، ولا بد من توضيح معالم هذه العلاقات ، ولعل أهم مضامينها ما يأتي :

أولاً : الحفاظ على الهوية :

ولا ينبغي الاختلاف في ذلك ، فإن الاختلاف في تحديد الهوية يعني ضياعها ، ثم السير بلا هدف ، ويعني ضياع الجهود ، والتخبط في المسير ؛ لأنه مسير لا إلى هدف ، وإن مما لا خلاف فيه أن هوية بلادنا العربية هي العروبة والإسلام ، ولا أصنفهما مفهومين متباينين ، بل هما متكاملان ، بل قل إنهما متلاحمان ، فالعروبة الانتماء للعرب ، والإسلام دين العرب كلهم إن لم يكن أغلبهم ، فالإسلام هو الذي يشكل هوية العرب ، وعرفهم العالم به ، فكان التعبير بأحد الوجهين يعني الآخر ، فهو بعدهم التاريخي والحضاري ، فالإسلام عنوانهم بكل ما يحمل من مفاهيم وتعاليم وعقائد ، ولا يعني هذا انتفاء مواطنة العرب غير المسلمين ، لا بل هم مواطنون لهم من الحقوق ما لغيرهم ، ويتوحدون في ولائهم للدولة ، وعليهم من الواجبات ما على غيرهم ، واختلاف الدين لم يكن سبب الفرقة في تاريخ المسلمين ؛ لأنه دين قام على احترام المعتقدات ، فالكل مواطنون لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، لكن الهوية الغالبة التي تعمل الدساتير التي تنص على أن دين الدولة الإسلام ، هي الهوية الإسلامية ، التي تحمل المعاني الخيرة المشتركة من احترام الآخر ، وبث روح الإخاء والفضيلة ، واحترام القوانين المنظمة للعلاقات المحددة للحقوق والواجبات .

الحفاظ على الهوية شأن الدولة في نظمها وقوانينها وسلطاتها الثلاث متكاملة ، ثم هو شأن المواطنين والمقيمين في الوقت ذاته أن يتحملوا مقابل ذلك في الولاء ، والامتثال واحترام الدين والتقاليد والعادات الحميدة التي هي من سمات هويتهم الوطنية والخلقية .

ثانياً : الشعور بالانتماء :

العلاقة المتبادلة بين الوطن والمواطن مبناها شعور المواطن بالانتماء لوطنه ، هذا الشعور ليس مادة توهب أو تشتري ، أو يتلقاها درساً عابراً ، إنما هي عملية تراكمية تنشأ مع الفرد منذ ولادته على هذه الأرض ، ومشيه المتدرج على أرضها طفلاً فشاباً فرجلاً ، في مراحل تربية أسرياً ومدرسياً ومجتمعياً ينمو هذا الشعور

بنموه في مراحل حياته كلها ، وإبان ذلك يغذى بحب هذا الوطن الذي عاش وتربى فيه ، وتكونت له فيه ذكريات ومواقف .

ومن جانب آخر يغذي هذا الشعور عوامل من أهمها الدين ، ويتفاعل معها طفلاً وشاباً ورجلاً ، وطفلة وشابة وامرأة ، زوجة وربة بيت ، كما يغذي هذا الشعور إلى جانب الدين اللغة والثقافة والعادات والتقاليد ، أو قل التراث القديم والحاضر ، وبمجموع ذلك تتكون لحمة الانتماء للأرض أو الوطن الذي يعيشه ، وبهذا الشعور تنمو لديه الإيجابية الذاتية ، فيخلص في عمله بقدر إخلاص حبه وولائه ، أو هكذا ينبغي أن يكون .

هذا الشعور هو الذي تحيش به النفس حين يفارق وطنه إلى بلد لم يتكون له فيه رصيد من المعاشية والتفاعل والذكريات ، وهذا هو المعنى الذي سنراه قريباً في تأصيل هذه المعاني في الآيات الواضحات ، وفي أقول وفعال ومواقف النبي ﷺ وصحبه الكرام . وهذا الشعور ينمو بغض النظر عن المواقف السلبية التي قد تواجه المرء في بلده ، فقد يطرد من بلده طرداً ، وقد تصادر أمواله ، ويؤذى في نفسه وماله ودينه ، ومع ذلك فهذا الشعور لا يخفت ولا يخبو ، بل قد يضطر أو يختار جنسية الدولة التي استقر فيها مقامه ، ومع ذلك فإن ميله وحبه إلى بيته الأول بعد قويا جياشا .

علاقة الوطنية بالإسلام :

لم يكن مفهوم الوطن والوطنية ذا بال لدى المسلمين ؛ إذ لم تكن أسبابه موجودة في ظل الدولة الإسلامية الواحدة ، فقد كان المسلم ينتقل في الدولة الإسلامية ويقوم حيث حط رحله ، فأرض الإسلام للمسلمين ولمن توطنها من غير المسلمين ، هي وطنهم مهما اختلفت أعراقهم وأصولهم فالإسلام عقيدتهم وجنسيتهم أني وجدوا وحلوا ما دامت السلطة للدولة الإسلامية . وإنما نشأ هذا المفهوم حين دالت دولة الإسلام ودخل الاستعمار أرض المسلمين فأعمل الفرقة بينهم وشتت شملهم وجزء دولتهم ، وجعلها دولا ودويلات ووضع لكل علم وعلامات وحدود ، وبث فيهم القوميات والأعرق وأحيا بينهم العصبية والطوائف ومزق لجمتهم شر ممزق .

لقد كانت فترة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية في ٢٤ آذار ١٩٢٤ واقتسام المستعمرين البلاد العربية والإسلامية ، ونشوء مقاومة المستعمر هي فترة بدء الصراع بين مفهوم الوطنية أو القومية والإسلام ، وكانت مصر هي أبرز ميادين هذا الصراع السياسي وكان " حزب الأمة " أكثر الأحزاب تعصبا لمبدأ وفكرة الوطنية المصرية وهي الانتماء إلى أرض مصر وتاريخها دون النظر إلى الدين أو العرق ، واعتبار فترة الحكم الإسلامي ليست سوى فصل من فصول التاريخ . وعبر عن هذا الاتجاه الأستاذ أحمد لطفي السيد زعيم حزب الأمة ، ومصطفى كمال زعيم الحزب الوطني ، وكثير من دعاة القومية العربية .

وكان أقوى الأصوات التي واجهت هذا الفكر والطرح مبكرا قبل شيوع مفهوم الوطن والوطنية بين الكتاب المسلمين هو الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ، ووجه في ذلك رسالة قوية عن الوطنية في المفهوم الإسلامي مؤصلة شرعا ، تبين حد الوسطية التي هي صفة أصيلة في هذا الدين وهي عبارات فصيحة واضحة تغنينا عن مزيد من البسط والتفصيل ، فقال مبينا حجج الطرف الآخر ضمنا والرد عليها في رسالته الشهيرة " دعوتنا " :

افتتن كثير من الناس بدعوة الوطنية تارة والقومية تارة أخرى وبخاصة في الشرق حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها وأخذت من مالها ومن دمها ، وحيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضا ، فهي تحاول الخلاص منه بكل ما في وسعها من قوة ومنعة وجهاد وجلاد ، فانطلقت ألسن الزعماء وسالت أنهار الصحف ، وكتب الكاتيون وخطب الخطباء وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية .

حسن ذلك وجميل ولكن من غير الحسن وغير الجميل أنك تحاول إفهام الشعوب الشرقية وهي مسلمة أن ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل مما هو في أفواه الغربيين وكتابات الأوروبيين أبوا ذلك عليك ولجوا في تقليدهم يعمهون ، وزعموا لك أن الإسلام من ناحية وهذه الفكرة من ناحية أخرى ، وظن بعضهم أن ذلك مما يفرق وحدة الأمة ويضعف رابطة الشباب

هذا الوهم الخاطيء كان خطرا على الشعوب الشرقية من كل الجهات .

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض، وألفتها والحنين إليها والانعطاف حولها، فذلك أمر مركزوز في فطر النفوس من جهة، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى، وإن بلالا رضي الله عنه الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته ، ودينه هو بلال الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى مكة في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة :

ألا ليت شعري هل أبينن ليلة بواد وحولي إذ خر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولقد سمع رسول ﷺ وصف مكة من أصيل ، فجرى دمه حنينا إليها وقال: " يا أصيل دع القلوب تقر " .

وإن كانوا يريدون أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير الوطن من الغاصبين وتوفير استقلاله، وغرس مبادئ العزة والحرية في نفوس أبنائه، فنحن معهم في ذلك أيضا وقد شدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد، فقال تبارك وتعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (٣) ، ويقول: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) (٤) .

(٣) المنافقون : ٨ .

(٤) النساء : ١٤١ .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم، فذلك نوافقهم فيه أيضا ويراه الإسلام فريضة لازمة، فيقول الله لنبيه ﷺ : " وكونوا عباد الله إخوانا " .

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد وسيادة الأرض فقد فرض ذلك الإسلام ووجه الفاتحين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح، فذلك قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) (٥) .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتترشق بالسباب وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء وشكلتها الغايات والأعراض وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ويزيد وقود هذه النار اشتعالا يفرقهم في الحق ويجمعهم على الباطل ، ويحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض ويحل لهم هذه الصلة به والاتفات حوله فلا يقصدون إلا داره ولا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس .

ثم يقول : ها أنت ذا قد رأيت أننا مع دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد ، وقد رأيت مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام.

ثم يبين بوضوح أصعب ما في الأمر وهو بيان الحدود الفاصلة بين حدود الوطنية في مفهوم الليبراليين والقوميين والوطنية التي يرتضيها الإسلام فيقول:

أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية ، فكل بقعة فيها مسلم يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله وطن عندنا له حرمة وقداسته وحبه والإخلاص له والجهاد في سبيل خيره ، وكل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخوانا نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحس بإحساسهم .

ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك فلا يعينهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض .

وطنية المسلم في البلاد غير الإسلامية :

إن من أصعب ما يواجه المسلمين الذين يعيشون في البلاد غير الإسلامية هو الموازنة بين مفهوم الوطنية في الإسلام والوطنية في هذه البلاد ، أو بمعنى آخر التوفيق بين متطلبات الوطنية ومدى قبول الإسلام لها . إنها قضية خطيرة أكثر مما يظنه النظر العابر ، إنها قضية كلفت المسلمين المواطنين خاصة الذين ارتضوا جنسية هذه البلاد طواعية بعد الهجرة إليها ، وبالأخص المواطنين الأصليين ، مسلمين بالأصل أو أنهم أسلموا وهم من أهل تلك الديار . كلفتهم قلقا واضطرابا بين الذوبان والتمسك بالهوية الإسلامية .

في مقالة قيمة معبرة لمسلم من مواليد أمريكا اسمه إمام أبو ليث لقمان أحمد ، وهو يعبر عن هذه المعاناة بشكل دقيق ؛ لأنه يعبر عن المشكلة تعبيراً واقعياً وبحس شرعي واع وهو خبير معاش . فلننظر في كلامه ، فإننا لن نحسن عرض الموضوع بأفضل منه ، ولكن دورنا هو في التنبيه على النقاط التي قد تحتاج إلى نظر شرعي . فيتساءل أولاً الأسئلة المهمة ثم يجيب فيقول :

هل تتناقض الوطنية الأمريكية مع الإسلام؟ هل تحية العلم الأمريكي.. وتقبيل التراب الأمريكي يعارض الإسلام؟ وما هو الأفضل للمسلم الأمريكي.. أن يلف نفسه "بالعباءة الوطنية"، ويفتخر بها، أم يتمسك - وبإصرار - بفكرة " أننا جميعاً مسلمون " ؟ وأخيراً : هل يختلف المسلم الأمريكي المهاجر عن المسلم الأمريكي المولد والمنشأ ؟

بمعنى آخر: هل تختلف الأجندة الوطنية بين هذا وذاك؟ تساؤلات كثيرة .. تشير قدراً كبيراً من اللبلة والحيرة. ثم يقول تحت عنوان " ندين بالشكر لأمريكا " : لا نستطيع أن ننكر أبداً أن الدولة الأمريكية أتاحت لنا فرصاً كثيرة، لا تقتصر فقط على السماح لنا بممارسة قدر كبير من ديننا الإسلامي، وإنما تمتد للسماح لنا بإقامة مجتمعات إسلامية تساعد على نشر روح ديننا الحنيف. ومن هذا المنطلق أرى أن حبنا لهذه البلاد -بدرجة معينة- لا بد أن يأتي بطريقة طبيعية ومنطقية.

وهذا طبعاً لن يمنعنا من ممارسة حقنا في توجيه اللوم والانتقاد ضد ما نراه حالياً من تدهور حاد في الأخلاق، يشتمل على الزواج المثلي، والإجهاض، وإبراز موضوع الجنس في الإعلام سواء بطريقة معلنة أو بطريقة ضمنية. ولن يمنعنا أيضاً من واجبنا تجاه دعوة الآخرين إلى طريق الله، مستخدمين الحكمة والموعظة الحسنة كأسلوب أمثل في الدعوة. وفي وسط كل ذلك يمكننا -إذا أردنا- الاحتفاظ بشعورنا الوطني تجاه أمريكا. ولن ينمو شعورنا هذا بهدف الحصول على "البطاقة الخضراء"؛ وإنما ينمو نتيجة للبيئة المتواجدة حولنا، وكيفية تعاملها معنا. وقد توجد مقولة قديمة تقول: "لا تعض اليد التي تطعمك!". ثم يبين حقيقة وواقع المسلمين فيقول تحت عنوان " وضع المسلمين الأمريكيين " :

إننا كمسلمين أمريكيين - نشأنا في الولايات المتحدة الأمريكية - ليس لدينا وطن آخر نعود إليه.. فأمریکا هي وطننا، سواء رضينا أم لم نرض.

في الحقيقة لا أرى أي عيب أو حتى حرمة في أن نشعر بقدر من الوفاء والولاء لوطننا الأمريكي، الذي يوفر لنا خدمات عديدة ومختلفة على كل الأصعدة، بالرغم من اختلاف ديننا. وكما يقول الله عز وجل في سورة الممتحنة : (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٦) .

وعموماً، فإن الشعب الأمريكي ليس لديه مشكلة كبيرة مع المسلمين؛ فمع مرور الوقت.. نصير نحن أكثر تأقلاً مع الثقافات الأخرى، وأكثر تقبلاً لها. ولكن على الوجه الآخر لا أستطيع إنكار حقيقة حكومتنا التي تورطت طويلاً في تاريخ

مشبوه سيئ السمعة. فهي لا تتورع أن تضع أي أحد في "القائمة السوداء" – إذا ما صار معرقلاً لمصالحها– حتى ولو كان يردد طوال الوقت الأنشودة الأمريكية الوطنية "God bless America" .. فالوطنية ساعتها لن تجدي.

ثم يصل إلى نتيجة حاسمة أرى أنها مقبولة شرعاً ومتوازنة في تحقيق المقاصد الدعوية العامة . فيقول تحت عنوان " الوطنية الحقيقية "

بيت القصيد أننا إذا أردنا أن نكون وطنيين حقيقيين؛ فعلينا أن نسعى بإصرار إلى جعل "الأرض الأمريكية" مكاناً أكثر أمناً وأماناً.. علينا أن ننتهج وجه الإسلام الصحيح المنصف الحق الشامل.. علينا أن نأخذ الأمور الأخلاقية في الاعتبار.. علينا أن نهتم بالبيئة التي حولنا.. فنساعد المشردين من خلال أموال الزكاة، ونمحو الفقر من خلال الصدقات، ونطور أساليب وطرقاً جديدة في التعليم تعتمد على عبادة الله الواحد الأحد.

ويلق في هذا الصدد على قضية فلسطين وموقف بلاده الظالم منها من منطلق دعوي دقيق فيقول : وبالنسبة لموضوع فلسطين، فهو بالتأكيد موضوع جدير بالاهتمام.. ولكن الشعب الأمريكي لن يعول عليه كثيراً ؛ وإنما سيعول على كيفية إبرازنا لروح التضامن الموجودة في الإسلام.

ومن الناحية الأخرى، فإن كنت تنوي بينك وبين نفسك أن تكره أمريكا فلك كل الحق في ذلك، ولك كامل الحرية في ذلك.. ولكن بشرط: وهو ألا يدفعك هذا الكره إلى الاعتداء على حقوق الغير. وبالرغم من أن ولاءنا للوطن الأمريكي يحتل جزءاً كبيراً من حياتنا كمسلمين أمريكيين ؛ فإن ولاءنا الأول والأخير سيظل لله سبحانه وتعالى. فنحن مسلمون، ولا بد أن نظل هكذا.. ولن تضرنا الوطنية في شيء. إن أمريكا تطلق على نفسها "شعب واحد تحت حماية الله" .. فمتى سنتعلم نحن المسلمين أن نكون "شعباً واحداً تحت حماية الله" ؟ (٧) .

وقد أحسن هذا المسلم في تحديد الفواصل الدقيقة في الوسطية بين الوطنية والولاء لله ، فالوطنية في حب المسلم لوطنه الذي يعيش على أرضه وينعم بخيراته كما ينعم بالأمان فيه ، ويقوم بواجب المواطنة الإيجابية بكل معانيها ، وفي الوقت ذاته لا ينسى أن ولاءه لربه فيقوم بواجب دعوته لدينه في هذه الديار، كما لا ينسى أن رابطة العقيدة أسمى رابطة .

تأصيل معنى المواطنة والوطنية :

الكتاب والسنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم يضعان أسس التوازن في مفهومي الوطن والوطنية الذي لا إفراط فيه ولا تفریط . وفي هذا الصدد نعرض للآيات والأحاديث الدالة على المعنى المراد نصاً أو دلالة أو إيماء . دون أن نحمل الآيات والأحاديث مالا تحتمل .

(٧) كاليفورنيا ترجمة وتحرير: شيرين حامد فهمي بعنوان " اللهم بارك أمريكا " بتصرف ، نشر في موقع إسلام أون لاين .

معاني الآيات القرآنية الواردة في الوطن والوطنية :

المعنى الأول : أن الخروج من الوطن قهرا نصرة للدين من أعلى مراتب الإيثار : وذلك في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (٨) . هذا وصف شامل للأنصار، تبوءوا الدار: أي المدينة، والإيمان من قبلهم: أي ببيعة العقبة الأولى والثانية من قبل مجيء المهاجرين، بل ومن قبل إيمان بعض المهاجرين يحبون من هاجر إليهم ويستقبلونه بصدر رحبة، ويؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، لأنهم هاجروا إليهم ، وظاهر النصوص تدل بمفهومها أن غيرهم لم يشاركونهم في هذه الصفات، ولكن في الآية الأولى ما يدل لمشاركة المهاجرين الأنصار في هذا الوصف الكريم، وهو الإيثار على النفس، لأن حقيقة الإيثار على النفس هو بذل المال للغير عند حاجته مقدماً غيره على نفسه، وهذا المعنى بالذات سبق أن كان من المهاجرين أنفسهم المنصوص عليه في قوله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (٩) ، فكانت لهم ديار، وكانت عندهم أموال وأخرجوا منها كلها، فلئن كان الأنصار واسوا إخوانهم المهاجرين ببعض أموالهم، وقاسموهم ممتلكاتهم، فإن المهاجرين لم ينزلوا عن بعض أموالهم فحسب، بل تركوها كلها. أموالهم وديارهم وأولادهم وأهلهم، فصاروا فقراء بعد إخراجهم من ديارهم وأموالهم. ومن يخرج من كل ماله ودياره ويترك أهله وأولاده، لا يكون أقل تضحية ممن أثر غيره ببعض ماله، وهو مستقر في أهله ودياره (١٠) ، وقد ذكر ابن كثير رحمه الله: أنه ﷺ قال للأنصار ما يشعر بهذا المعنى، وهو قوله ﷺ : " إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم فقالوا يا رسول الله: أموالنا بيننا قطائع " الحديث . أي أن الأنصار عرفوا ذلك للمهاجرين، وعليه أيضاً، فقد استوى المهاجرون مع الأنصار في هذا الوصف المثالي الكريم، وكان خلقاً لكثيرين منهم بعد الهجرة كما فعل الصديق رضي الله عنه حين تصدق بكل ماله .

والشاهد من الآية واضح فهي نص في أن حب الوطن فطري وأنه عزيز علي النفس أعز مما يملكون من الأرض والدور والمال في سبيل الله ، وفيه دلالة أن الوطن عزيز ولا يترك إلا لما هو أهم وهو إعزاز الدين ونصرتة ، والآية تمتدح المهاجرين أن حملهم الإيمان على ترك هذا العزيز ، وهذا قمة الإيثار. فدرجة الأفضلية للمهاجرين على الأنصار هي التضحية بالوطن ومن بعد التضحية بما يتبعه.

المعنى الثاني : أن من أخرج من وطنه يستحق نصرة الله له :

وذلك في قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (١١) .

(٨) الحشر : ٩ .

(٩) الحشر : ٨ .

(١٠) أضواء البيان في تفسير القرآن للشنقيطي .

(١١) التوبة : ٤٠ .

فالأصل أن المرء يعيش في وطنه معززا مكرما ، ولا يخرج منها إلا بسبب يحمله على ذلك حملا إما طلب الرزق أو السعة فيه بالتجارة أو طلب العلم ونحو ذلك ، وأشد ما يكون ضررا وألما أن يخرج من وطنه جبرا وظلما ، والنبي ﷺ أخرج من بلده مكة جبرا وظلما ، فخرج مهاجرا

استجابة لأمر الله ونصرة لدينه ، رغم ما في الهجرة من آلام نفسية ، فاستحق تأييد الله له ونصرته ، وهذه النصرة يستحقها كل من قام مقام رسول الله ﷺ وامثل فعله فأخرج أو خرج من أرضه نصرة وإعزازا للدين . متحملا ما في الهجرة من آلام نفسية ومادية في سبيل الله كما قال الشيخ السعدي : الهجرة : مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه تقربا إلى الله ونصرة لدينه (١٢) .

المعنى الثالث : حب الوطن والحفاظ عليه قرين حب النفس والخوف عليها من الهلاك :

وذلك في قوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) (١٣) ، واقترن في موضع آخر بالدين : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم) (١٤) ، فانظر كيف كادت درجة الإخراج من الأرض أن تصل درجة إزهاق الروح فلو أن الله أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو أنه أمرهم أن يخرجوا من ديارهم فهو ابتلاء متكافئ لما أقدموا على أي من الأمرين ، ومن ذلك مكر الكافرين بالنبي ﷺ في أمور متكافئة في الظلم والجبروت من الصلب حيا أو القتل أو الطرد من الوطن قال تعالى : " وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " . قال الطبري : فتأويل الكلام واذكر يا محمد نعمتي عندك بمكري بمن حاول المكر بك من مشركي قومك بإثباتك أو قتلك أو إخراجك من وطنك حتى استنقذتكم منهم وأهلكتهم فامض لأمرني في حرب من حاربك من المشركين وتولى عن إجابة ما أرسلتك به من الدين القيم ولا يرعبك كثرة عددهم فإن ربك خير الماكرين بمن كفر به وعبد غيره وخالف أمره ونهيه (١٥) .

المعنى الرابع : أن من حب الوطن الدعاء له بالأمن وسعة الرزق:

ومن ذلك قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) (١٦) .

(١٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١ / ٨٩ ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م ، تحقيق : الشيخ ابن عثيمين .

(١٣) النساء : ٦٦ .

(١٤) الممتحنة : ٨ .

(١٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٣٠) ، للإمام محمد بن جرير الطبري ، دار النشر : دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ هـ .

(١٦) البقرة : ١٢٦ .

والآية نص في مشروعية الدعاء وفي تعليم المسلمين والناس عامة الدعاء لأوطانهم فهذا من واجب الوطنية ، وخير دعاء الدعاء بالأمن وسعة الرزق كما دعا إبراهيم عليه السلام .

قال القرطبي : قوله تعالى: (بَلَدًا آمِنًا) يعني مكة؛ فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش. وقال الشيخ الفاضل بن عاشور : لقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة ، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام .

الأحاديث الواردة في الوطن والوطنية :

وردت أحاديث عديدة في الوطن ومشروعية حبه والوطنية الإيجابية وحد الوسط فيها ، بلا بخر ولا شطط ، وقد حملت الأحاديث النبوية من المعاني ما يمثل - مع المعاني القرآنية السابقة - تكاملاً لوسطية الإسلام في مفاهيم الوطن والوطنية .

المعنى الخامس : إظهار الحب والشوق إلى الوطن :

ومن ذلك ما روى أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة - مرتفعات المدينة - أوضع - أسرع - ناقته وإن كانت دابة حركها.

قال أبو عبد الله زاد الحارث بن عمير عن حميد حركها من حبها ، قال ابن حجر : حركها أي حرك دابته بسبب حبه المدينة ، وفي الحديث دلالة على فضل المدينة ، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه ^(١٧) . وقال ابن بطال: وتعجيل سيره - ﷺ - إذا نظر إليها من أجل أن قرب الدار يجدد الشوق للأحبة والأهل ، ويؤكد الحنين إلى الوطن ، وفي رسول الله - ﷺ - الأسوة الحسنة ^(١٨) . وفي هذا يقول الثعالبي : إن الإنسان يستوحش بفراق وطنه كما يستوحش بفراق مسكنه ، ألا ترى أن البكر إذا زنا جلد وغرب عن بلده سواء كان له أهل أو لم يكن ^(١٩) .

ويلحظ أن لفظ "كان" في الحديث يومئ إلى تكرار ذلك الفعل منه ﷺ ، وهذا استجابة لفطرة حب الوطن والشوق إليه ولمن فيه من الأهل والأبناء . وتلقي أخباره . وفي الحديث إشارة إلى أن النبي ﷺ توطن المدينة مع أن مكة موطنه أصلاً ، وحبها لها باق ولولا إخراج أهلها له وإذن الله له بالهجرة ما خرج منها ، فالوطن عزيز وإن جار أهله عليه . وله في النفس وحشة، وإذا كان فراق المنزل يورث الوحشة فكيف

(١٧) فتح الباري ٦/٦ رقم الحديث ١١٧٥ و ١١ / ٢٥٤

(١٨) شرح صحيح البخاري ٨٢/٣ لابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي الوفاة: ٤٤٩ هـ ، دار النشر : مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم .

(١٩) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للإمام : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، المتوفى سنة ٨٧٥ هـ ، دار النشر : مؤسسة الأعلمي للطبوعات . الوطن والوطنية : سلامة كيلة.

بفراق الديار . وفي حديث ورقة بن نوفل لما أخبر النبي ﷺ أنهم سيخرجوه ، قال رسول الله ﷺ : " أو مخرجي هم ؟ " قال السهيلي: وإنما قال ذلك، لان فراق الوطن شديد على النفوس، فقال: " نعم ! إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً " أي نصرك نصراً عزيزاً أبداً .

وفي بقية الحديث أنه قال لرسول الله ﷺ لتكذبنه فلم يقل له النبي ﷺ شيئاً ، ثم قال ولتؤذينه فلم يقل له شيئاً ، ثم قال ولتخرجنه فقال أو مخرجي هم ؟ ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقتة على النفس وأيضاً فإنه حرم الله وجوار بيته أبيه إسماعيل فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم تتحرك قبل ذلك فقال أو مخرجي هم ؟ والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقتها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه أو التألم منه (٢٠) .

(٢٠) السيرة النبوية لابن كثير - ١ / ٣٩٧ ، والروض الأنف ١ / ٤١١ و ٤١٤ .

المعنى السادس : إعلان الحنين إلى الوطن والتغني بحبه :
ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة
وعك أبو بكر وبلال ، قالت : فدخلت عليهما فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ، ويا بلال
كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :
كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
وكان بلال إذا أفلح عنه الحمى يرفع عقيرته ^(٢١) ويقول - وقد سبق التنويه به
:-

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل
قالت عائشة : فجنّت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : " اللهم حبب إلينا المدينة
كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها فاجعلها
بالجفة " ^(٢٢) .

ووصل حب بلال لمكة أنه كان يلعن من كان سببا في إخراجهم فكان يقول :
اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمّية بن خلف كما أخرجونا إلى أرض
الوباء ، " أي أخرجهم من رحمتك كما أخرجونا من وطننا .

وقال السهيلي : في هذا الخبر وما ذكر فيه من حنينهم إلى مكة ما جبلت عليه
النفوس من حب الوطن والحنين إليه وقد جاء في حديث أصيل الغفاري ويقال فيه
الهدلي - وقد سبق التنويه به - أنه قدم من مكة ، فسألته عائشة كيف تركت مكة يا
أصيل ؟ فقال تركتها حين ابيضت أبطحها ، وأحجن ثمامها ، وأغدق إذخرها ،
وأمشر سلمها ، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ - وقال " لا تشوفنا يا أصيل " ،
ويروى أنه قال له : " دع القلوب تقر " ، وقد قال الأول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة .. بوادي الخزامى حيث ربنتي أهلي
بلاد بها نيطت علي تمانمي . وقطعن عني حين أدركني عقلي ^(٢٣)

وفي الحديث مشروعية التغني وإنشاد الشعر في الحنين إلى الوطن وتذكر
مرايع الصبا والذكريات العزيزة على النفس ، وأن من أخرج من وطنه قهرا وظلما
جاز له الدعاء على الظلمة . والدعاء إلى الله بالعودة بأسرع ما تكون العودة ، سلما
أو حربا إن كان ذلك ممكنا . وفيه استحباب الدعاء للوطن بما فيه خيره وصحة أهله
ونفي الأمراض عنهم وكل ما يعكر صفو الحياة الرغيدة .

المعنى السابع : حب ما في الوطن من معالم لها في النفوس ذكريات ومواقف:

(٢١) يرفع عقيرته أي صوته بيكاء أو بغناء . بواد أي بوادي مكة . وجليل نبت ضعيف يحشى به
خصاص البيوت وغيرها . مياه مجنة موضع على أميال من مكة وكان به سوق وشامة وطفيل
جبلان بقرب مكة. فتح الباري ١١/٢٥٤ حديث رقم ٣٦٣٣ وشرح صحيح البخاري لابن بطال
٤٥٣/٤

(٢٢) صحيح البخاري رقم ١٨٨٩

(٢٣) الروض الأنف ١/١١٤ .

ومن ذلك وما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي ﷺ راجعا وبدا له أحد قال : " هذا جبل يحبنا ونحبه ، ثم أشار بيده إلى المدينة قال اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا^(٢٤) ". فانظر رقة هذا الحديث حتى الطبيعة الجمالية الجامدة لها في النفوس مساحة من الحب ، فهي جزء من الوطن الكبير ، وقس علي ذلك حب ما في الوطن من خيرات ونعم ومن أنهار ووديان وحدائق ، وما فيها من حيوان وطائر ، ونحو ذلك مما فيه من حي وجامد. ولكن حب النبي ﷺ لأحد حب من نوع خاص حب متبادل كما الحب بين حبيب ومحبيه .

المعنى الثامن : الحث علي ملازمة الوطن :

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة فقال: " والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله عز وجل ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت " (٢٥) .

هذا لفظ من النبي ﷺ فيه أشد الحث على ملازمة الوطن عامة فكل أرض تحب لما فيها من خير واستقرار ، ولكن أشدها حبا أرض العبادة التي باركها الله وجعل القلوب المؤمنة تهفوا إليها وتحن ولو لم تكن هي أرضها ووطنها. والبقاء في الوطن يعني إعمارها وحمائته والعيش في نعيمه .

قال السهيلي - بعد أن ذكر الهجرة إلى الحبشة - : وفيه من الفقه الخروج عن الوطن وإن كان الوطن مكة على فضلها ، إذا كان الخروج فرارا بالدين وإن لم يكن إلى إسلام (٢٦) - أي إلى بلد مسلم -

حب الوطن وصلته بالإيمان :

ورد في ذلك حديث ضعيف ولكن محل ذكره ههنا لصحة المعنى فلننظر كلام العلماء في ذلك وتأويلهم لحديث " حب الوطن من الإيمان " قال الزركشي لم أقف عليه ، وقال السيد معين الدين الصفوي ليس بثابت وقيل إنه من كلام بعض السلف قال السخاوي : لم أقف عليه ومعناه صحيح . وقال المنوفي ما ادعاه من صحة معناه عجيب إذ لا ملازمة بين حب الوطن وبين الإيمان ويرده قوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم فيها أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) فإنه دل على حبهم وطنهم مع عدم تلبسهم بالإيمان إذ ضمير عليهم للمنافقين . وتعقبه بعضهم بأنه ليس في كلامه أنه لا يحب الوطن إلا مؤمن وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافي الإيمان .

قال الشيخ ملا علي القاري : ولا يخفى أن معنى الحديث حب الوطن من علامة الإيمان ، وهي لا تكون إلا إذا كان الحب مختصا بالمؤمن فإذا وجد فيه وفي غيره لا يصلح أن يكون علامة قبوله . ثم قال: ومعناه صحيح نظرا إلى قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا) ، فصحت معارضته بقوله تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا) . ثم قال : الأظهر في معنى الحديث إن صح مبناه أن يحمل على أن المراد بالوطن الجنة فإنها المسكن الأول لأبينا آدم على خلاف فيه أنه خلق فيه أو دخل بعدما تكمل وأتم ، أو المراد به مكة فإنها أم القرى وقبلة العالم ، أو الرجوع إلى الله تعالى على طريقة الصوفيين فإنه المبدأ والمعاد كما يشير إليه قوله تعالى : (وأن إلى ربك المنتهى) . أو المراد به الوطن المتعارف لكن بشرط أن يكون سبب حبه صلة أرحامه وإحسانه إلى أهل بلده من فقرائه وأيتامه ثم التحقيق أنه لا يلزم من كون الشيء علامة له اختصاصه به

(٢٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٣٠٥) ، حديث رقم (١٨٧٣٧) ، للإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، دار النشر : مؤسسة قرطبة - مصر .

(٢٦) الروض الأنف (١/١١٤) .

مطلقا بل يكفي غالبا ألا ترى إلى حديث " حسن العهد من الإيمان " و " حب العرب من الإيمان " مع أنهما يوجدان في أهل الكفران (٢٧) .

ويحتمل أن المعنى صحيح بمعنى الإيمان بلوازم الوطن أي بما لا ينفصل عنه فحبه من حبه بالنسبة للمؤمنين ، فهو موضع دفاعه عن ماله ودمه ودينه وأهله ، حتى اعتبر من مات دون ذلك شهيد كما ورد في الحديث " من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد " (٢٨) .

رفع الالتباس الشرعي عن بعض القضايا الوطنية :

كثير من القضايا الوطنية يظن أنها منافية للشرع فيقع السؤال عنها ، وسنختار بعض هذه المسائل وهي : تحية العلم ، موسيقى الجيش والسلام الوطنى والوقوف عند سماعه ، وأن من يقتل دفاعا عن الأرض لا يعد شهيدا ولا يستحق أجر الشهداء في الإسلام .

أولا : تحية العلم :

يستشكل بعض المواطنين شرعية الوقوف لتحية العلم سواء بالنسبة للجنود في الجيش ، أو بالنسبة لوقوف الطلبة والطالبات في طابور الصباح ، ومما جعل السؤال أو الاستشكال جديرا بالنظر هو صدور فتاوى فردية وجماعية بتحريم تحية العلم - وليس اتخاذ العلم - واعتبار ذلك من البدع ، بل منهم من قال إن تحية الرؤساء والزعماء من التشبه بالكفار (٢٩) . ومع احترامنا لهذه الفتاوى إلا أن الذي يظهر أن اتخاذ العلم رمزا للدول أمر عرفي ، لا تخلو منه دولة اليوم ، وقد كان العرب قبل الإسلام يرفعون الرايات ويحاربون دونها ، وكان سقوط الراية إشارة إلى الهزيمة ، وكانت الرايات في الإسلام بألوان مختلفة حسب القبائل فالجيش له راية بلون واحد وقد يكون لكل قبيلة لون يميزها . فلا تكاد تسقط حتى يحملها آخر ويكون حامل الراية هو القائد غالبا . وهكذا ظل هذا المعنى راسخا في تاريخ الجهاد الإسلامي ، بل هو يستند إلى فعل النبي ﷺ ، وفعل أصحابه من بعده ، حتى نص بعض الفقهاء على استحبابه في الجيش ، فالعلم كان له نوع تقدير عندهم لما يرمز إليه من عزة وشموخ وطني لا لذاته أو لونه .

وأما الاحترام بالطريقة التي تصاحب أداء التحية برفع اليد بالسلام ، أو وضعها على القلب ، أو أي وضعية أخرى ، لا يعني احترام أو تقديس قطعة القماش

(٢٧) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى ١٨١-١٨٢ ، للعلامة

نور الدين علي بن محمد بن سلطان المشهور بالملا علي القاري ، الوفاة: ١٠١٤ هـ ، دار النشر : دار

الأمانة / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ، تحقيق : محمد الصباغ

(٢٨) إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما ، الترغيب والترهيب للمنذري ٢/٢٩٥ .

(٢٩) من فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية كما سيأتي.

، وإنما احترام ما يرمز إليه ، فهو رمز الوطن واحترامه بطريقة عرفية وليس فيها مظهر عبادي مثل الانحناء ، فلا بدعة في ذلك . وإذا جاز تحية العلم ، جاز من باب أولى التحية برفع اليد والانضباط من ذي الرتبة الأقل لمن هو أعلى منه في الجيش أو الشرطة .

وأما الموسيقى الوطنية المصاحبة للسلام فسيأتي بيان حكمها ، وأما إن كان الوقوف لمجرد سماع السلام الوطني فأرى كراهته ، لعدم وجود ما يسوغه شرعا ، وما خفف حكمه أنه عرف دولي لاصلة له بقوم أو عبادة . فمن فعله جاز ولكنه فعل خلاف الأولى . وفيما يأتي بيان وتأصيل ما ذكرنا بالنسبة للراية وهي العلم أو اللواء .

وفيما يأتي بعض الشواهد المؤيد لجواز ما يتعلق بالعلم مما جاء منشأه الاهتمام بالعلم باعتباره رمزا .

قال ابن إسحاق : - في معركة مؤتة - لما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ : أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، قال ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ، ثم قال ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا (٣٠) .

وفي الصحيحين : أن النبي ﷺ قال : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فأعطاه عليا . وعن يزيد بن جابر الغفري عند ابن السكن قال : " عقد رسول الله ﷺ رايات الأنصار وجعلهن صفرا " ، وعن أنس عند النسائي أن ابن أم مكتوم كانت معه راية سوداء في بعض مشاهد النبي ﷺ (٣١) . ومن حديث كرز بن أسامة عن النبي ﷺ أنه عقد راية بني سليم حمراء . وكانت راية النبي ﷺ سوداء ولواؤه أبيض .

قال في طرح التثريب وفيه استحباب الألوية في الحروب (٣٢) . وفيما يلي بعض الأسئلة في الموضوع والجواب عنها .

س: ما حكم تحية العلم في الجيش وتعظيم الضباط وحلق اللحية فيه؟

ج: لا تجوز تحية العلم، بل هي بدعة محدثة، وقد قال النبي ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه البخاري ومسلم وأما تعظيم الضباط باحترامهم وإنزالهم منازلهم فجائز، أما الغلو في ذلك فممنوع، سواء كانوا ضباطاً أم غير ضباط.

(٣٠) سيرة ابن هشام ٣٨٠/٢ .

(٣١) نيل الأوطار ٤٩/١٢ ومختصر سيرة الرسول p للإمام محمد بن عبد الوهاب ٢٨٩/١ .

(٣٢) اللواء بكسر اللام والمد هو الراية ويسمى أيضا العلم وقال أبو بكر بن العربي : اللواء غير الراية ، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح . وقيل : اللواء دون الراية . طرح التثريب ٢٥/٨ .

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد ، وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عبد الله بن قعود عبد الله بن غديان عبد الرزاق عفيفي عبد العزيز بن عبد الله بن باز (٣٣) .

س: أفيدوني عن حكم من يعمل بالجيش وهذا مصدر رزقه وتقرض عليه نظم الجيش وقوانينه أن يعظم بعضنا بعضًا كما تفعله الأعاجم، وأن نلقي التحية بكيفية ليست بالتي أمرنا بها الله ورسوله، وأن نعظم علم الدولة ونحکم ونحتكم فيما بيننا بشريعة غير شريعة الله - قوانين عسكرية - .

ج: لا يجوز تحية العلم، ويجب الحكم بشريعة الإسلام والتحاكم إليها، ولا يجوز للمسلم أن يحيي الزعماء أو الرؤساء تحية الأعاجم، لما ورد من النهي عن التشبه بهم، ولما في ذلك من الغلو في تعظيمهم (١) ٣٤ .
وممن قال بجواز تحية العلم عطية صقر وهيئة الفتوى بوزارة الأوقاف الكويتية (٣٥) .

ثانيا : موسيقى الجيش والقيام عند السلام الوطني :

الذي نراه في ذلك هو أن موسيقى الجيش والسلام الوطني وإن كان فيها بعض المعازف إلا أن تعلقها بمعالي الأمور ومقاصد الحماسة وعزة الوطن وأمجاده وجريان عرف الدول بلزومه ، فلا تخلو دولة منه . ذلك كله يرجح الحكم بجوازه وبخاصة أن حكم المعازف أو الموسيقى المعهودة اليوم مختلف في حكمها بين الحرمة والكراهة والإباحة ، ولولي الأمر حينئذ الترجيح بينها باختيار أهل الفتيا في بلده .

ولعل أقدم فتوى في جواز موسيقى الجيش الفتوى الواردة جوابا على طلب وإصرار والي مصر على مسير قوات الجيش في مكة والمدينة بصحبة موسيقى الجيش . وهذا مقتطف منها :

(٣٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، (٢٤٤/١) فتوى رقم (٦٨٩٤).

(٣٤) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، (٢٤٤/١) فتوى رقم (٦٨٩٤).

(٣٥) مايو ١٩٩٧ فتاوى الأزهر - (٢٢١/١٠) .

" وبعد النظر وتقدير الظروف والزمن بما يناسبه أن الموسيقى يعتبرها فريق كبير من أهل نجد وغيرهم من الملاهي التي إن صح أن تكون مسلية للجند ومكملة لنظامهم في السير، فلا يليق أن تستعمل في أماكن العبادة مثل مكة ومنى و عرفات الأماكن التي يكثر فيها التلبية والذكر والنسك وأنا لا أحب أن تظهر حكومة مصر المحبوبة إلا بالمظاهر المتفقة مع مكانتها في العالم الإسلامي ، وليس لدى من مانع من استصحاب الموسيقى إلى جدة (٣٦) . هذا وبالله التوفيق .

وأما فيما يتعلق بالوقوف عند سماع السلام الوطني أو الرئاسي المصاحب للموسيقى بنشيد أو بغير نشيد فإن كان الوقوف مع دخول الرئيس أو الأمير أو الملك ونحوهم في المسميات ، فلا بأس به لأن القيام للحاكم العادل والعالم أكرام أهل الفضل له أصل في الجواز الشرعي للقادم إذا كان بقصد، لحديث أبي سعيد الخدري : { أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ، فأتاه على حمار ، فلما دنا من المسجد ، قال للأنصار : قوموا إلى سيدكم أو خيركم . }^{٣٧} . قال النووي في شرح صحيح مسلم معلقا على هذا الحديث : فيه إكرام أهل الفضل ، وتلقيهم بالقيام لهم ، إذا أقبلوا ، واحتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام ، قال القاضي عياض : وليس هذا من القيام المنهي عنه ، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه ، وهو جالس ، ويمثلون قياما طوال جلوسه ، وأضاف النووي : قلت : القيام للقادم من أهل الفضل مستحب ، وقد جاء فيه أحاديث ، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح . ويستحب القيام لأهل الفضل كالوالد والحاكم ؛ لأن احترام هؤلاء مطلوب شرعا وأدبا . وقال الشيخ وجيه الدين أبو المعالي في شرح الهداية : وإكرام العلماء وأشرف القوم بالقيام سنة مستحبة . وقال ابن القيم : وقد قال العلماء : يستحب القيام للوالدين والإمام العادل وفضلاء الناس ، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل . فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه لم يأمن أن ينسبه إلى الإهانة والتقصير في حقه ، فيوجب ذلك حقا . وقد ورد { أن النبي ﷺ كان إذا دخلت فاطمة عليه قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه ، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها }^{٣٨} وورد عن محمد بن هلال عن أبيه أنه قال : { إن النبي ﷺ كان إذا خرج قمنا له حتى يدخل بيته }^{٣٩} . وورد عن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ، لما يعلمون من كراهيته لذلك . الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ثالثا : من مات دفاعا عن وطنه هل يعد شهيدا

(٣٦) عبد الرحمن قراة ١٩٢٦ م - ١٣٤٥ هـ ، وزارة الأوقاف المصرية :

(٣٧) البخاري ٤١١/٧

(٣٨) الترمذي ٧٠٠/٥ : حديث حسن غريب

2 مجمع الزوائد ٤٠/٨ وقال الهيثمي : رجاله ثقات

اعتبار الشهادة مرهون بالنية . فمن مات في جيش بلد مسلم من مثل بلاد العرب والمسلمين اليوم ، أعني تلك البلاد التي لا يطبق فيها الإسلام كاملا ، فيحشر على نيته ، فإن كانت نيته من أجل التراب والأرض ، ولم تتطلع نيته لأبعد من هذا فليس ذلك من أبواب الشهادة في شيء ، ويبعد أن تكون نيته مجرد ذلك ، فإن صحب ذلك أمور أخر ، فالشهادة بحسبها ، فإن كانت نيته إعلاء كلمة الله والإسلام فهي الدرجة العلا في الشهادة ، وإن مات وكانت النية متوجهة إلى الدفاع عن المال ، أو النفس ، أو العرض والأهل فهو شهيد إن شاء الله . ثم إن الأرض والوطن لا يمكن فصله عن ذلك فالدفاع عنها دفاع عن الوطن بلا ريب . ومصداق هذا ما ورد من أحاديث . فقد جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك في سبيل الله . قال : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله " ^{٤٠}

وقال ﷺ : " من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد " ^{٤١} .

هذا ما يسر العزيز الرحمن والحمد لله رب العالمين
كتبه : عجيل جاسم النشمي

^{٤٠} البخاري الجامع الصحيح رقم الحديث ٧٤٥٨
^{٤١} الترمذي وقال : حديث حسن رقم الحديث ١٤٢١